الدعاء دواء لكل داء

(قصة زكريا عليه السلام أنموذج عمليا لأثر الدعاء)

عبـــير فرغـــل عـز الديـن (*)

المقدمة

لقد كان من تعاليم الإسلام ومبادئه وشرائعه الحضّ على صحة البدن والاعتناء بالصحة، ومن لوازم ذلك التداوي: اللجوء إلى الطبيب عند الحاجة والمرض، وإذا عدنا إلى الأحاديث النبوية الشريفة وجدنا فيها ينبوعا ومَعينا لا ينتهي حول هذا الموضوع، **ومنها:**

عن أسامة بن شريك الثعلبي قال كنت عند رسول الله ﷺ وجاءت الأعراب فقالوا: يا رسول الله أنتداوى؟ فقال: "نعم يا عباد الله تداووا فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء غير داء واحد، قالوا: ماهو؟ قال: الهرم"(١).

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:" **لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برئ بإذن الله عز وجل**"(٢).

إن هذه الأحاديث تبشر المسلمين والناس كافة بأنه **لا يوجد في الدنيا داء إلا له دواء**، ماعدا الهرم، **والموت**، وهذا يساعد في تنشيط الأبحاث العلمية والتجارب السريرية وعدم الإحباط واليأس، وكم من أمراض كان يُظن ألَّا علاج لها وتم الشفاء منها حالياً، كمرض السل وأمراض الرئة، والتهابات الكبد، والكثير من الحُميّات، وكذلك الحال في بعض أنواع الأورام والسرطانات.

وهذا هو الجانب المادي الظاهر للعيان، الذي يمكن للمسلم والكافر أن يتخذه سبيلا في التداوي، ولكن هناك حالات بالفعل لم يصل الطب إلى علاجها، وتم القطع فيها بأنه ليس للطب إليها سبيل، ففي هذه الحال لا بد للإنسان من ركن شديد يأوي إليه، وجاه عظيم يحتمي به، وقدرة لا تعرف المستحيل يلجأ إليها، ويطلب من القوي المقتدر ما عجز عنه سائر البشر، ولهذا كان في الإسلام جانب آخر من جوانب التداوي، وهو التداوي الروحي، الذي يصل الأسباب بمسببها، والمخلوقات بخالقها، والمقدورات بالقادر عليها.

(*) هذا البحث مستل من رسالة الماجستير الخاصة بالباحثة، وهي بعنوان: [القضايا العقدية في سورة مريم وأثرها في علاج مشكلات الواقع المعاصر]، وتحت إشراف: أ.د. خالد عبد الحليم عبد الرحيم السيوطي – كلية الآداب – جامعة سوهاج & د. أمين عبيد فهمي – كلية الآداب – جامعة سوهاج.

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣٠/ ٣٩٤ – ٣٩٥) برقم ١٨٤٥٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب لكل داء دواء واستحباب التداوي (٤/ ١٧٢٩) برقم ٢٢٠٤.

إن الإسلام شرع للمسلمين الدعاء وسيلة علاجية فعالة، يتداوى بها المسلم من سائر أدوائه، النفسية والبدنية، الظاهرة والخفية، وجعل من الدعاء الرقية بالقرآن، وبغيره من أدعية النبي العدنان ﷺ.

إن الإسلام جعل الدعاء دواء مما نزل من البلاء بأنواعه، ووقاية مما لم ينزل، ولقد كان من ذلك في عهد النبي ﷺ، والصحابة الكرام، والتابعين كثير من الوقائع الدالة عليه.

ولن نذهب بعيداً؛ فإن القرآن الكريم ذكر لنا عددا من الوقائع، التي لم يُجْدِ فيها الطب، ولم ينفع فيها التداوي بالمادة والعقاقير، ولكن دفع الله شرها، وشفا أهلها بالدعاء والتضرع إليه، ومن ذلك ما جاء عن أيوب عليه السلام، الذي مرض ولم يشف إلا بالدعاء، رغم كل المحاولات العلاجية، وكذلك العقم الذي أصاب زوجتي إبراهيم وزكريا عليهما السلام، ثم رزقهم الله الولد مع عقم النساء وشيخوخة الرجال.

ولقد اخترت في هذا البحث قصة نبي الله زكريا عليه السلام وزوجته لتكون أنموذجا عملياً على أن الدعاء له أثر عظيم في الشفاء، فهو دواء، بل هو أعظم الأدوية وأنجحها.

منهج البحث:

اتخذت لهذا البحث المنهج الاستقرائي، حيث تتبعت كل ما جاء في جزئي البحث –الدعاء وقصة زكريا عليه السلام- ثم اختصرت منهما ما يفيد البحث، ويعود على القارئ بالنفع

إجراءات البحث

وكان من إجراءات البحث: عزو الآيات إلى مواضعها من سور المصحف، وتخريج الأحاديث النبوية، وعزوها إلى مواضعها من كتب الحديث، مع الحرص على ذكر ما صح من الحديث النبوي، وتجنبت الضعيف والموضوع من الأحاديث، وبعدت كل البعد عن الاسرائيليات في القصص.

واجتهدت في ضبط الكلمات التي يشكل على القارئ لفظها، حتى يستطيع قراءتها بالشكل المناسب لسياقها، واجتهدت في وضع علامات الترقيم في مواضعها الصحيحة.

وأما عن المصادر فإني أذكر المصدر بكامل بياناته في المرة الأولى لذكره، ثم بعد ذلك أقتصر على اسم الكتاب مع اسم المؤلف ورقم الجزء والصفحة.

ولقد قسمت البحث إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة

جعلت في المقدمة أهمية التداوي وإجازة الإسلام لوجوده في المجتمع الإسلامي، بل إنه أمر المسلمين به، ثم ذكرت الدعاء باعتباره أحد الأدوية، بل أنفعها.

والمبحث الأول في معنى الدعاء وفضله وفوائده وشروطه وآدابه

والمبحث الثاني في بيان ما دار في قصة نبي الله زكريا عليه السلام وزوجته وكيف رزقهما الله الولد الصالح يحيى عليه السلام.
ثم الخاتمة وفيها أهم نتائج البحث وتوصياته

المبحث الأول

معنى الدعاء وفضله وفوائده وشروطه وآدابه

لقد كان من عظيم فضل الله على عباده وجزيل نعمه وجميل إحسانه أن أمرهم بالدعاء، وهو الغنى عنهم، وذلك؛ لينفتح أمامهم باب الأمل والرجاء، وليتفضل عليهم بالإجابة والقبول؛ وليطمعوا في واسع كرمه وعميم فضله وعظيم جوده.

*** معنى الدعاء:**

الدعاء من الدعو أو الدعي[١]، وهو يعني الطلب والإمالة بالكلام؛ يقول ابن فارس: (الدال والعين والحرف المعتل أصل واحد، وهو أن تميل الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك. تقول: دعوت أدعو دعاء.)[٢]

والدعاء في الاصطلاح يعني الابتهال الى الله تعالى بالسؤال والرغبة فيما عنده من الخير والتفرغ إليه في تحقيق المطلوب وإدراك المأمول[٣]، ولقد أحس الناس من قديم الزمان أنهم ولاسيما في ساعة العسرة، وفى لحظات الضيق، وفى أحوال أخرى كثيرة، في حاجة إلى قوة فوق قوتهم؛ لكى يستعينوا بها على جلب الخير ودفع المكروه.

ولقد ورد تفسير الدعاء بالإيمان؛ فعن ابن عباس –رضي الله عنهما قال في تفسير قول الله تعالى: {قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ}[٤]: لولا إيمانكم[٥]

*** الدعاء والعبادة:**

يعتبر الدعاء من أعظم العبادات؛ لأنه يقرب العبد لخالقه، ونجوى يناجيه بها وحده، ويقطع أمله في المخلوق، وتلك حقيقة التوحيد المقصود من العبادة.

---

(١) كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ) المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال (٢/ ٢٢١).

(٢) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ) المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م. (٢/ ٢٧٩).

(٣) ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ) المحقق: مجموعة من المحققين، دار الهداية (٣٨/ ٤٦).

(٤) الفرقان: ٧٧.

(٥) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) المحقق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م (١٩/ ٣٢٢).

إن المرء لتشتد به الحاجه إلى التقرب من الله عندما يشعر بحاجته إليه ورغبته فيه، وهذا يدل على الإخلاص في الطاعة، والثناء على الله، والتسليم إليه، وفى الحيث الشريف [الدعاء هو العبادة وقرأ قولة تعالى {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}[1]][2].

*** فضل الدعاء:**

الدعاء كان دأب الصالحين وديدنهم، وزادهم الروحي، يرددونه في العسر واليسر والمنشط والمكره، قال تعالى في وصف هؤلاء {يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ}[3].

بل لقد كان طابع الأنبياء ووسيلتهم للتقرب إلى الله، وهم المصطفون الأخيار؛ قال تعالى في شأن أنبيائه {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}[4].

ولقد حثنا الله في كثير من آياته كما حثنا رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه في كثير من أحاديثه على الإكثار من الدعاء.

قال تعالى: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً}[5].

ولقد بين لنا رسول الله ﷺ أن فضل الدعاء عند الله يسبق كل فضل؛ فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [ليس شيء أكرم على الله من الدعاء][6]

*** فوائد الدعاء:**

الدعاء ملاذ كل مكروب، وأمان كل خائف، وراحة كل مضطرب، به يجأر الإنسان إلى خالقه في كل وقت، لا سيما عندما تشتد الكروب، وتتقطع الأسباب وتعظم الخطوب، وتعجز الحيل؛ فيشعر بالراحة النفسية وطمأنينة القلب، ومن أهم فوائد الدعاء.

١. أنه يربى في الداعي ملكة الخجل والحياء من الله تعالى؛ إذ إنه عندما يشعر بأن الله قد استجاب له يستحى أن يجحد نعم خالقه، ويخجل من انتهاك حرمته.

---

(١) غافر: ٦٠.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند من حديث النعمان بن بشير، (٣٠/ ٢٩٧ – ٢٩٨) برقم ١٨٣٥٢ وأخرجه الترمذي في سننه عن النعمان بن بشير، أبواب الدعوات، باب منه (٥/ ٤٥٦) برقم ٣٣٧٢ وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) الكهف: ٢٨.

(٤) الأنبياء: ٩٠.

(٥) الأعراف: ٥٥.

(٦) أخرجه الإمام أحمد في المسند، تحقيق: شاكر (٨/ ٤٠٨) من حديث أبي هريرة برقم ٨٧٣٣ وأخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر (١/ ٦٦٦) برقم ١٨٠١ عن أبي هريرة أيضا، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد.

٢. أنه ينقذ الداعي من صخب الحياة، وضوضائها إلى رحاب النجاة وصفائها، ويقطعه، ولو لفترة محدودة عن شهوات الدنيا وزينتها ومتعها الزائلة؛ ليصله بالملأ الأعلى، ويجعله يشعر باللذة الروحية، والطمأنينة القلبية، وفى ذلك ما فيه من الاستعداد القوى، والتهيؤ الفعال، وحسن التحول إلى المداومة على ما يرضى الله، والعزم الأكبر على مخالفة الهوى والشهوات.

٣. يقول الإمام الغزالي (ثم في الدعاء، من الفائدة أنه يستدعى حضور القلب مع الله فهو منتهى العبادات)[١].

٤. ومن فوائد الدعاء أن دعاء الأبناء لأباءهم، ينفعهم بعد موتهم، ويرفع درجاتهم، روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال [إن الله عز وجل ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يا رب، أنى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك][٢].

٥. ومن فوائد الدعاء أنه لون من ألوان الذكر، ذكر الله والتقرب إليه، وقد مدح الله الذاكرين له في كثير من آياته، ومن ذلك قولة تعالى: {وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}[٣].

*** شروط الدعاء:**

للدعاء شروط يجب أن يلتزمها الداعي ليكون دعاؤه أرجى في الإجابة والقبول، ومن أهم هذه الشروط:

١. أن يدعو الداعي ربه بنية صادقة وحضور قلب؛ لقول النبي ﷺ: [القلوب أوعية، وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتم الله عز وجل، أيها الناس، فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإن الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل][٤]

٢. ألا يملَّ الداعي بل يُلح في دعائه ويكثر، وفى الحديث أنه ﷺ قال [لا يمل الله حتى تملوا][٥].

٣. تضرع الداعي وخوفه، بحيث يكون حال الداعي بين الخوف والرجاء، وبين الرغبة والرهبة، امتثالاً لقولة تعالى في وصف المؤمنين: {يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا}[٦].

---

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ) دار المعرفة – بيروت، د. ت.، (١/ ٣٢٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند، ط: الرسالة، من حديث أبي هريرة –رضي الله عنه- (١٦/ ٣٥٦ – ٣٥٧) برقم ١٠٦١٠.

(٣) الأحزاب: ٣٥.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند، تحقيق: شاكر، من حديث عبد الله بن عمرو –رضي الله عنهما- وقال الشيخ أحمد شاكر: الحديث صحيح (٦/ ٢١٣) برقم ٦٦٥٥.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله عز وجل أدومه، من حديث أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها- (١/ ١٧) برقم ٤٣.

(٦) السجدة: ١٦.

٤. ألا يخص الداعي نفسه في الدعاء، خاصة إذا كان في جمع، لاسيما إذا كان يدعو بالرحمة والمغفرة، فيدعو لنفسه ولوالديه ولإخوانه المسلمين؛ لتكون المنفعة أعم، ويكون الدعاء أكثر استجابة؛ متأسياً في ذلك بأنبياء الله، فهذا هو ابراهيم عليه السلام {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ}(١).

٥. ومن هذه الشروط التي يجب توافرها في الدعاء أن يكون الداعي حازماً فلا يعلق دعاءه بالمشيئة، ويسأل سؤال مضطر فقير إلى من يسأل؛ عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة، ولا يقولن: اللهم إن شئت فأعطني، فإنه لا مستكره له] (٢). فإن في قوله لربه إن شئت تعطيني كذا فافعل أسلوباً لا يتفق مع من يفتقر إلى من يسأله، أسلوب لا يستعمل إلا من الغنى عمَّن يدعوه، أما المضطر فإنه يعزم في مسألته

٦. ومن هذه الشروط التي يجب توافرها في الداعي أن يجتهد في تطهير نفسه وقلبه ظاهراً وباطناً من الذنوب ومن الآثام، والذى يعينه على ذلك الإكثار من ذكر الله وكثرة الاستغفار.

٧. ومن هذه الشروط كذلك أن يوطن الداعي نفسه على التقيد بما أحله الله له في مطعمه ومشربه، وفى ملبسه وفى سائر شئونه، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}(٣) وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ}(٤) ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟](٥).

*** شروط المدعو به:**

من شروط المدعو به أن يكون من الأمور الجائز طلبها شرعاً؛ عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: [لا يزال يستجاب للعبد، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم] (٦).

---

(١) إبراهيم: ٤٠ - ٤١.
(٢) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب العزم بالدعاء، ولا يقل إن شئت (٤/ ٢٠٦٣) برقم ٢٦٧٨.
(٣) المؤمنون: ٥١.
(٤) البقرة: ١٧٢.
(٥) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (٢/ ٧٠٣) برقم ١٠١٥.
(٦) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم لم يعجل فيقول: دعوت فلم يستجب لي.

*** آداب الدعاء:**

كما أن للدعاء شروطاً فإن له كذلك آداباً تكون مراعاتها أرجى في قبول الدعاء وإجابة الداعي ومن أهم هذي الآداب:

١. أن يغتنم الداعي الأوقات الفاضلة والأحوال الشريفة، ومن هذه الأوقات والأحوال: يوم عرفة من أيام السنة(١) وشهر رمضان من بين الأشهر(٢)، والجمعة من أيام الأسبوع(٣)، ووقت السحر من ساعات اليل(٤)، وكذلك من بين الأوقات التي التي ينبغي فيها الإكثار من الدعاء: أثناء السجود بين يدى الله(٥)، وبين الأذان والإقامة(٦)، وعند نـــزول المطـــر(٧)، وعند زحـــف الجيـــوش للجهـــاد في في

(١) أخرج الترمذي عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن النبي ﷺ قال: "خير الدعاء دعاء يوم عرفة" سنن الترمذي ت شاكر، أبواب الدعوات (٥/ ٥٧٢) برقم ٣٥٨٥ والحديث حسن.

(٢) أخرج ابن ماجة في سننه عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله - ﷺ -: "إن للصائم عند فطره لدعوة ما ترد".. سنن ابن ماجه ت الأرنؤوط، أبواب الصيام، باب في الصائم لا ترد دعوته (٢/ ٦٣٦) برقم ١٧٥٣ قال الأرناؤوط في تحقيقه: حديث حسن.

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال أبو القاسم ﷺ: «في يوم الجمعة ساعة، لا يوفقها مسلم، وهو قائم يصلي يسأل الله خيرا إلا أعطاه». صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء في الساعة التي في يوم الجمعة (٨/ ٨٥) برقم ٦٤٠٠

(٤) عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ، قال: " ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له" صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل (٢/ ٥٣) برقم ١١٤٥ وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه (١/ ٥٢١) برقم ٧٥٨

(٥) عن ابن عباس، قال: كشف رسول الله ﷺ الستارة والناس صفوف خلف أبي بكر، فقال: «أيها الناس، إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة، يراها المسلم، أو ترى له، ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعا أو ساجدا، فأما الركوع فعظموا فيه الرب عز وجل، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقمن أن يستجاب لكم». صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود (١/ ٣٤٨) برقم ٤٧٩.

ومعنى "فقمن أن يستجاب لكم" قال السيوطي: فقمن بفتح القاف وفي الميم الفتح والكسر مصدر لا يثنى ولا يجمع ومعناه حقيق وجدير. شرح السيوطي على مسلم، الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) حقق أصله، وعلق عليه: أبو اسحق الحويني الأثري، دار ابن عفان للنشر والتوزيع - المملكة العربية السعودية – الخبر، الطبعة: الأولى ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م (٢/ ١٧٤)

(٦) عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله - ﷺ -: "الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد؛ فادعوا". فادعوا". وقال الأعظمي في تحقيقه: حديث صحيح. صحيح ابن خزيمة، تحقيق الأعظمي، ط ٣ (١/ ٢٥١) برقم ٤٢٥.

(٧) أخرج البخاري في صحيحه عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان إذا رأى المطر، قال: «اللهم صيبا نافعا» صحيح البخاري، أبواب الاستسقاء، باب ما يقال إذا مطرت (٢/ ٣٢) برقم ١٠٣٢.

سبيل الله[١]، فإن هذه الأوقات وردت فيها أحاديث وآثار تبين فضل الدعاء فيها.

٢. ان يفتتح الداعي دعائه بالثناء على الله بأسمائه الحسنى، وبالصلاة على النبي ﷺ وأن يجعل ذلك في وسط الدعاء وفى آخره، فعن فضالة بن عبيد رضى الله عنه قال سمع النبي ﷺ رجلا يدعو في صلاته فلم يصلِّ عليه فقال النبي عجل هذا ثم دعاه وقال له ولغيره [إذا صلى أحدكم (يعنى إذا دعا) فليبدأ بتحميد الله والثناء عليه ثم يصلي على النبي ثم ليدع بما شاء][٢].

٣. خفض الصوت بحيث يكون بين المخافتة والجهر؛ لما صح عن أبي موسى، قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر، فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أيها الناس اربعوا على أنفسكم، إنكم ليس تدعون أصم ولا غائبا، إنكم تدعون سميعا قريبا، وهو معكم»[٣]

وقالت عائشة رضى الله عنها في قولة تعالى: {وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ}[٤] أي "بدعائك"[٥].

٤. ألا يتكلف السجع في الدعاء فإن حال الداعي ينبغي أن يكون حال المتضرع والتكلف لا يناسبه. قال ﷺ «سيكون قوم يعتدون في الدعاء»[٦]. وللبخاري عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: « فانظر السجع من الدعاء فاجتنبه»، فإني عهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يفعلون إلا ذلك يعني لا يفعلون إلا ذلك الاجتناب[٧]

٥. أن يلح في الدعاء ويكرره ثلاثاً ، قال ابن مسعود رضى الله عنه كان عليه الصلاة والسلام إذا دعا دعا ثلاثاً وإذا سأل سأل ثلاثاً "[٨]. وينبغي ألَّا يستبطئ

---

(١) عن سهل بن سعد أن رسول الله - ﷺ - قال: "اثنتان لا تردان أو قل ما تردان: الدعاء عند النداء، وعند البأس حين يلتحم بعضهم بعضا".. صحيح ابن خزيمة، تحقيق الأعظمي، ط ٣ (١/ ٢٤٩) برقم ٤١٩ وقال الأعظمي: حديث حسن.

(٢) صحيح ابن خزيمة، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ في التشهد (١/ ٣٧٣) برقم ٧٠٩.

(٣) صحيح مسلم، كتاب العلم، باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٤/ ٢٠٧٦) برقم ٢٧٠٤. ٢٧٠٤.

(٤) الإسراء: ١١٠.

(٥) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، بَابُ {وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا} [الإسراء: ١١٠] (٦/ ٨٧) برقم ٤٧٢٣.

(٦) صحيح ابن حبان، ط الرسالة، باب إخباره ﷺ عما يكون في أمته، ذكر الإخبار عن اعتداء اعتداء الناس في الدعاء وفي الطهور في آخر الزمان (١٥/ ١٦٦) برقم ٦٧٦٤. قال محقق الكتاب: إسناده صحيح على شرط مسلم

(٧) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب ما يكره من السجع في الدعاء (٨/ ٧٤) برقم ٦٣٣٧.

(٨) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (٣/ ١٤١٨/٣) برقم ١٧٩٤.

الإجابة؛ لقوله عليه الصلاة والسلام [يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: قد دعوت فلم يستجب لي][(١)] فإذا دعوت فاسأل الله كثيراً فإنك تدعو كريماً.

* الدعاء يرد البلاء:

وكما يكون الدواء مادياً للعلل الحية، فجعلوا له العقاقير الطبية، فإنه يكون أيضاً روحيًّا، وذلك بعلاجه بالدعاء؛ يقول ابن القيم رحمه الله: (والدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء، يدفعه، ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن. كما روى الحاكم في صحيحه من حديث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: «الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السماوات والأرض»[(٢)].

وللدعاء مع البلاء ثلاث مقامات:

أحدها: أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه.

الثاني: أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء، فيصاب به العبد، ولكن قد يخففه، وإن كان ضعيفا.

الثالث: أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه.

وقد روى الحاكم في صحيحه من حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: «لا يغني حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة»[(٣)].)[(٤)].

مما سبق تتبين قيمة الدعاء ومكانته، وما ينبغي للمسلم من الحرص عليه، واستخدامه باعتباره دواء نافعا، بل هو أنفع الأدوية، موقنا ذلك، مطمئنة نفسه حتى وإن تأخرت الإجابة أو انعدمت في الدنيا.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب يستجاب للعبد ما لم يعجل (٨/ ٧٤) برقم ٦٣٤٠.

(٢) المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ) تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ – ١٩٩٠، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر (١/ ٦٦٩) برقم ١٨١٢. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح.

(٣) المستدرك للحاكم، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر (١/ ٦٦٩) برقم ١٨١٣. ١٨١٣. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد.

(٤) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) دار المعرفة – المغرب، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م (ص ١٠ – ١١).

المبحث الثاني

قصة زكريا عليه السلام أنموذجٌ عمليٌّ لأثر الدعاء

لقد كان في قصة إنجاب زكريا عليه السلام من زوجه عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، إنها قصة شيخ هرم، وهن العظم منه، واشتعل رأسه شيبا، لم يعد يقوى على شيء مما يكون وسيلة للإنجاب، وإن كان هو فيه بقية من شيء فإن زوجه امرأة عاقر، لا تلد في شبابها، وقد صارت عجوزاً، فهي كما جاء وصف مثلها لنفسها في القرآن الكريم {عَجُوزٌ عَقِيمٌ}(١) حتى إنها عندما بشرتها الملائكة بالإنجاب عجبت من هذه البشرى؛ لما تخالفها من العادة والقوانين الطبيعة، والمعهود عن الصحة البدنية للإنسان، وما أعتده الناس من عدم الإنجاب للعجوز، التي انقطع طمثها، فكيف بها إذا كانت عاقرا منذ شبابها؟!! ولذلك قالت للملائكة: {يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ}(٢)

إنه شيء عجيب بمقاييس البشر، وعلومهم، وقدراتهم، ولكنه لا يكون عجيبا بالنظر إلى علم الله تعالى وقدرته؛ فإنه عز وجل هو العليم القدير، ولذلك ردت الملائكة على تعجب امرأة إبراهيم عليه السلام: {قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ}(٣)

وكذلك وقع العجب لنبي الله زكريا عليه السلام عندما بشره الله تعالى بولد يُولَد له على كبر سنه من امرأته العجوز العاقر {قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا}(٤) [مريم: ٨] سببان –بالعادة- مانعان من الإنجاب، بل إن أحدهما كافٍ في عدم الإنجاب، ولكن هذا –كما سلف- في عادات البشر ومقدورهم وعلمهم، ولذلك رد الله تعالى على تعجب زكريا عليه السلام {قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا}(٥)

ولقد سبق بشرى الله تعالى لنبيه زكريا عليه السلام كثير من دعاء زكريا عليه السلام وزوجه والتضرع والتقرب إلى الله تعالى والخشوع بين يديه، والخوف والرجاء؛ فكان جزاؤهما من الله تعالى أن استجاب دعاءهما، ورحم ضعفهما، وجبر انكسارهما بولد يبرهما، ويشبع عاطفتيهما، ويكون لهما عونا على مشاق الحياة، ووريثا يرث مهام النبوة والدعوة إلى الله.

ولقد جاء وصف يحيى بن زكريا عليهما السلام بقول الله تعالى: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا

(١) الذاريات: ٢٩.
(٢) هود: ٧٢.
(٣) هود ٧٣.
(٤) مريم: ٨.
(٥) مريم: ٩.

بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا}[١]

وهذه آية من الله تعالى تدل على أن الدعاء أنفع الأدوية من أوجع الأدواء، وهو العقم، ذلك الداء الذي يحرم الإنسان نعمة الأبناء، ويمنع النفس الرّيَّ من ماء العاطفة والحنان، ويضيق نطاق زينة الدنيا على الأبوين إذا كان أحدهما عقيما أو كليهما.

العقم في اللغة

أصله للثوب المعلمة؛ قال امْرُؤ الْقَيْس:

(علَوْنَ بأنطاكيّةٍ فَوق عِقْمَةٍ ... كجِرْمَةِ نخلٍ أَو كجنّةِ يثربِ) [٢]؛ فالعقم –بفتح العين - والعقمة – بالفتح والكسر - ضرب من الوشي[٣] ولذلك يقال: (جللوا هوادجهم بالعقم والرقم)[٤] أي بالأقمشة الملونة، حتى لا يهتدى إليها إلا أصحابها؛ فالعقم (والتعقيم: إبهام الشيء حتى لا يهتدى له.)[٥]

قال ابن فارس: (العين والقاف والميم أصل واحد يدل على غموض وضيق وشدة. من ذلك قولهم حرب عقام وعقام: لا يلوي فيها أحد على أحد لشدتها. وداء عقام: لا يبرأ منه.)[٦]

ومن هذا الباب: داء العقم، الذي يصيب النساء والرجال على السواء؛ (وعقمت الرحم عقما. وذلك هزمة تقع فيها فلا تقبل الولد. وكذلك عقمت المرأة فهي معقومة وعقيم. ورجل عقيم ورجال عقماء. ونسوة معقومات وعقائم وعقم.)[٧]

وقال الزجاج: (أصل العُقم، العقم في الولادة، يقال: هَذِهِ امرأة عقيمٌ، كما قال اللَّه - عَزَّ وَجَلَّ - : (قَالَتْ عجوزٌ عقيم). وكذلك رجل عقيم إذا كان لا يُولدُ له؛ قال الشاعر:

---

(١) مريم: ١٢ - ١٥.

(٢) ديوان امرئ القيس، امْرُؤُ القَيْس بن حجر بن الحارث الكندي، من بني آكل المرار (المتوفى: ٥٤٥ م) اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م، قافية الباء، قصة أم جندب، ص ٧٤.

(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، ٥/ ١٩٨٨ .

(٤) جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: ٣٢١هـ) المحقق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م، ٢/ ٩٤١.

(٥) العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي (المتوفى: ١٧٠هـ) المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ١/ ١٨٦.

(٦) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ) المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.، ٤/ ٧٥.

(٧) العين للخليل بن أحمد، ١/ ١٨٥.

عُقِمَ النِّساءُ فلن يَلِدْنَ شَبيهَه. . . إن النِّساءَ بمثْلِه عُقْمُ[1]

والريح العقيم التي لا تأتي بسحاب يُمْطِر، وإنما تأتي بالعذاب)[2]

ولا فرق بين العقم والعقر في النساء؛ فيقال امرأة عقيم، وامرأة عاقر، وأصل العقر القطع، ومنه عقر الناقة.

الفرق بين العقيم والعاقر:

أما حروف كلمة العقم فإن (العين والقاف والميم أصل واحد يدل على غموض وضيق وشدة. ... ومن الباب عقمت الرحم عقما، وذلك هزمة تقع في الرحم فلا تقبل الولد.) [3]

وأما العاقر، وهو اسم فاعل، ومصدره "عَقْر" فالمصدر يدل على معنيين متباعدين: الأول: العقر بمعنى الجرح، ومنه عقرت الناقة، والثاني بمعنى الثبات والمداومة، ومنه المرأة العاقر، التي لا تلد[4]

المراد بالعقيم في القرآن الكريم:

ورد ذكر العقم في القرآن الكريم بصيغة فعيل "عقيم" بمعنى مفعول على ثلاثة أشياء، هي: الإنسان والريح والأيام.

أما الإنسان فقد ورد في حقه العقم في موضعين:

الأول: في حق الرجل والمرأة دون تعيين، وذلك في قوله تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ}[5]

الثاني: في حق المرأة دون الرجل، وذلك في قصة الملائكة الذين زاروا نبي الله إبراهيم عليه السلام قبل ذهابهم إلى قوم لوط عليه السلام؛ {فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ }[6]

---

(١) ذكره ابن منظور في اللسان بقوله: لسان العرب (١٢/ ٤١٢)
قال أبو دهبل يمدح عبد الله بن الأزرق المخزومي، وقيل هو للحزين الليثي. لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ، ١٢/ ٤١٢

(٢) معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ) المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، ٣/ ٤٣٤.

(٣) مقاييس اللغة لابن فارس (٤/ ٧٥).

(٤) ينظر السابق (٤/ ٩٠ – ٩١).

(٥) الشورى: ٤٩ - ٥٠ .

(٦) الذاريات: ٢٨ - ٣٠.

وأما الريح ففي قوله تعالى: {وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ}[١]

وأما الأيام ففي قوله تعالى: {وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ }[٢] أي اليوم الذي لا ليلة بعده[٣].

والعقم المقصود بالبحث إنما هو العقم الذي يكون في الإنسان، وهو الوارد في آيتي الشورى والذاريات، وبالنظر في هذه الآيات وخواتمها يتبين أن العقم والإيلاد إنما هو دليل على علم الله تعالى وقدرته وحكمته؛ فآية الشورى ختمها الله تعالى بقوله سبحانه: {إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} يقول الطبري: (إن الله ذو علم بما يخلق، وقدرة على خلق ما يشاء لا يعزب عنه علم شيء من خلقه، ولا يعجزه شيء أراد خلقه.)[٤]

وفي ختام آية الذاريات قال سبحانه: {إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ } قال الفخر الرازي: (الحكيم هو الذي فعله، كما ينبغي لعلمه قاصدا لذلك الوجه بخلاف من يتفق فعله موافقا للمقصود اتفاقا، كمن ينقلب على جنبه فيقتل حية وهو نائم، فلا يقال له حكيم، وأما إذا فعل فعلا قاصدا لقتلها بحيث يسلم عن نهشها، يقال له حكيم فيه)[٥]

العقم بين الأسباب ومسبباتها في سورة مريم

ولا يمنع كون العقم والإيلاد بعلم الله تعالى وقدرته وحكمته أن يكون للعقم أسباب من الناحية الصحية، فالعقم معناه اليبس والشدة، غير أن هذه الأسباب الصحية –أيا كانت - لا تفعل بذاتها، وإنما تفعل بإذن الله تعالى لها، ويدل على ذلك: السلب حال الصلاح والعطاء حال الفساد؛ فالله تعالى منع إبراهيم وزكريا عليهما السلام حال شبابهما وقدرتهما على الإنجاب؛ لأن المانع كان من النساء - زوجتيهما - فكان من الممكن أن يتزوجا وينجبا، ولكن حصلت موانع الزواج؛ لتتحقق إرادة الله تعالى وينجبا من المرأتين ذاتيهما –العاقر والعقيم - بحصول

(١) الذاريات: ٤١ - ٤٢.
(٢) الحج: ٥٥.
(٣) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) المحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، ١٨/ ٦٧١.
(٤) تفسير الطبري، ت شاكر، ٢١/ ٥٥٨.
(٥) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ) دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ، ٢٨/ ١٧٨.

معجزات الله الدالة على علمه وقدرته وحكمته؛ فظلا بلا ولد حتى كبر سنهما، وضعفت قوتهما، حتى إن إبراهيم عليه السلام يصف حاله عند ما رزقه الله الولد فيقول: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ}(١)

وزكريا عليه السلام يصف حاله قبل رزقه الولد؛ فيقول: {قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا}(٢) فلما نادته الملائكة وجاءته البشرى بيحيى تعجب –بناء على الواقع المعتاد - فقال: {رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا}(٣)

ففي قصة إبراهيم –عليه السلام- قال: "على الكبر". قال بعض المفسرين: "على" هنا بمعنى مع(٤)

والصحيح أن "على" هنا ليست بمعنى مع، وإنما هي على لفظها بمعنى الاستعلاء والفوقية والقهر، وكأن المعنى المراد منها: رغما على الموانع المادية المعتادة من الإنجاب، وقهرا لنواميس الطبيعة المعروفة بين البشر من عدم قدرة كبير السن من النساء والرجال على الإنجاب فإنك سبحانك رزقتني الولد فضلا منك ونعمة، وإظهاراً لقدرتك وعلمك وحكمتك.

ويؤكد هذا المعنى ما جاء في قصة إنجاب زكريا عليه السلام والرد على تعجبه: {قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا } [مريم: ٩] والمعنى: أتعجب يا زكريا من قدرة الله على إخراج غلام من ذكر وأنثى ونسيت قدرته عز وجل على خلقك من لا شيء؟ والسؤال هنا للتقرير.

والمراد بقوله "ولم تك شيئا" التذكير بخلق الإنسان الأول آدم عليه السلام، وكان توجيه الخطاب لزكريا بضمير المخاطب لا الغائب - عن آدم- لبيان تمام النعمة على زكريا عليه السلام؛ حيث إن الذي خلقه من قبل ولم يك شيئا استجاب دعاءه ولبى نداءه ورزقه الولد على كبر سنه وضعف بدنه، بحسب ما وصف من حال نفسه –عليه السلام - في الدعاء؛ قال الفخر الرازي: (في وجه الاستدلال بقوله

(١) إبراهيم: ٣٩.
(٢) مريم: ٤ - ٥.
(٣) مريم: ٨.
(٤) تفسير الرازي ١٩/ ١٠٦ وفتحُ البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي(المتوفى: ١٣٠٧هـ) عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: خادم العلم عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنَّشْر، صَيدَا – بَيروت، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، ٧/ ١٢٨.

تعالى: وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا فنقول: إنه لما خلقه من العدم الصرف والنفي المحض كان قادرا على خلق الذوات والصفات والآثار وأما الآن فخلق الولد من الشيخ والشيخة لا يحتاج فيه إلا إلى تبديل الصفات والقادر على خلق الذوات والصفات والآثار معا أولى أن يكون قادرا على تبديل الصفات وإذا أوجده عن عدم فكذا يرزقه الولد بأن يعيد إليه وإلى صاحبته القوة التي عنها يتولد الماءان اللذان من اجتماعهما يخلق الولد ولذلك قال: فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه [الأنبياء: ٩٠] فهذا وجه الاستدلال.)[١]

وقال البيضاوي: ({وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً} بل كنت معدوماً صرفاً، وفيه دليل على أن المعدوم ليس بشيء)[٢]

والبيضاوي في هذا المعنى قد وافق أهل السنة في قولهم بأن المعدوم ليس بشيء، ومنهم كان أبو منصور الماتريدي والإمام أبو حامد الغزالي[٣]

وقال الشوكاني: (والمعنى: أن الله سبحانه خلقه ابتداء وأوجده من العدم المحض، فإيجاد الولد له بطريق التوالد المعتاد أهون من ذلك وأسهل منه، وإنما لم ينسب ذلك إلى آدم عليه السلام لكونه المخلوق من العدم حقيقة بأن يقول: وقد خلقت

(١) تفسير الرازي ٢١/ ٥١٤.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ) المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ، ٤/ ٦.

(٣) إن القول بشيئية المعدوم إنما هو قول مبطن بقدم العالم، وذلك؛ أن القائلين بشيئية المعدوم يقرون أن المعدومات أشياء كامنة قبل ظهورها، وهذا يعني أنها قديمة، لا حادثة؛ لأن الحادث كان بعد أن لم يكن، وهُم يقولون: كان بعد ما كان أيضا ولكن في صورة المعدوم. ينظر: التوحيد، محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الما تريدي (المتوفى: ٣٣٣هـ) المحقق: د. فتح الله خليف، دار الجامعات المصرية - الإسكندرية ص ٨٦

وبناء على تصور شيئية المعدوم يقال: إن الله تعالى لم يخلق شيئا من العدم، ولكنه خلق شيئا من شيء سابق عليه، وهذا السابق لا يمكن أن يقال عنه حادث؛ إذ لو كان حادثا لكان له محدث أنشأه. وللرد على هؤلاء يقال لهم: يلزمكم من القول بشيئية المعدوم ووجوده في الخارج القول بوجود إله آخر مع الله –تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا- وهذا ينفي أصل التوحيد الذي جاءت به الأنبياء..

والإمام الغزالي يرد عليهم بقوله: (أما الفلاسفة فقد قالوا بقدم العالم، وهو محال، لأن الفعل يستحيل أن يكون قديماً؛ إذ معنى كونه فعلاً أنه لم يكن ثم كان، فإن كان موجوداً مع الله أبداً فكيف يكون فعلاً؟ بل يلزم من ذلك دورات لا نهاية لها على ما سبق، وهو محال) الاقتصاد في الاعتقاد لأبي حامد الغزالي ص٦٣ .

أباك آدم من قبل ولم يك شيئا، للدلالة على أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشاء آدم من العدم) [١]

والواحدي –رحمه الله - يبين من هذه الآية أن الله تعالى يرد بكلامه على المخالفين لصحيح النقل وصريح العقل؛ فيقول: (وقوله تعالى: {وَلَمْ تَكُ شَيْئًا} يريد أنه كان عدما فأوجده بقدرته، وفي هذا رد على القدرية[٢] في تسميتهم المعدوم شيئًا. والله تعالى يقول لزكريا حين كان معدوما: {وَلَمْ تَكُ شَيْئًا}.)[٣]

وهذه القصة – ميلاد يحيى عليه السلام من أبوين كبيرين - قد تبدو عجيبة لبعض البشر، وصادمة للقائلين بالحتمية الطبيعية[٤]، خصوصا وأن الأم كانت عاقراً منذ شبابها، لم تلد قبله في حياتها قط، وبحكم العادة فإنها لا تلد قط.

(١) فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ) دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ، ٣/ ٣٨٢.

(٢) أراد بالقدرية فرقة المعتزلة، حيث إنهم ينفون قدر الله تعالى وخلقه للشر كما خلق الخير، وأنهم هم القائلون بشيئية المعدوم. ينظر: شرح المقاصد في علم الكلام، سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني، (ت: ٧٩١هـ) دار المعارف النعمانية، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، باكستان، ١/ ٨٥ - ٨٦

(٣) التَّفْسِيرُ البَسِيْط، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ) المحقق: أصل تحقيقه في (١٥) رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ، ١٤/ ٢٠٣.

(٤) الحتمية: مذهب من يرى (أن لهذا العالم نظاما كليا دائما لا يشذ عنه في الزمان والمكان شيء، وأن كل شيء فيه ضروري، وأنه من المحال أن يكون اطّراد الأشياء ناشئا عن المصادفة والاتفاق، بل الطبيعة في نظرهم مبرأة من كل إمكان خاص، وجواز عام، ليس فيها ابتداء مطلق، ولا علة أولى، ولا طفرة، ولا معجزة.) المعجم الفلسفي (بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية) الدكتور جميل صليبا (المتوفى: ١٩٧٦م) الشركة العالمية للكتاب – بيروت، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م ١/ ٤٤٤.

الخاتمـــــــــــــة

في نهاية هذا البحث القصير المتواضع عن الدعاء وأثره في الشفاء، وما جاء في البحث من قصة نبي الله زكريا عليه السلام باعتبارها أنموذج عمليا لأثر الدعاء فإن البحث قد انتهى إلى عدد من النتائج، من أهمها:

المرض والشفاء كلاهما من أقدار الله عز وجل، حتى وإن تسبب الإنسان في المرض أو في الشفاء.

الدواء لا ينفع إلا إذا أصاب الداء، وإصابته إياه أي بالقدر الذي يدفعه، من غير نقصان فيعجز الدواء، ومن غير زيادة تنقل إلى نوع آخر من الداء.

الإسلام لم يمنع التداوي بكل وسائل الطب وأساليبه، التي تؤدي إلى العلاج النافع، بل إن الإسلام يأمر بذلك.

إصابة الدواء للداء لا تتم إلا بتقدير الله تعالى، ولنا في حياتنا كثير من الأمثلة، فربما ذهب مريض إلى أكبر الأطباء فلم يفلح في مداواته، ثم يذهب إلى طبيب مبتدئ فيصف له دواء بسعر زهيد فيكون فيه الشفاء، فمن الذي أذهله عن الدواء زهيد الثمن وأخره عنه إلى أجل معين؟ إنه الله تعالى حتى يوافق الوقت الذي أذن الله فيه بالشفاء.

الدعاء ليس وسيلة العجزة والكسالى كما يظن البعض من الماديين، ولكنه وسيلة الصالحين، وسلاح المؤمنين، وطريق التقرب إلى رب العالمين، الذي يقول للشيء كن فيكون.

الدعاء لا بد أن يكون عن يقين جازم بأن الله تعالى قادر، وأن لا شيء يخرج عن قدرته وأمره.

على الداعي أن يعلم أن إجابة الدعاء بيد الله وحده، هو الذي يحدد وقتها وطريقتها؛ فلربما تأخرت الإجابة في الدنيا لترفع درجات صاحبها في الآخرة، أو أنها أجيبت بدفع بلاء أكبر كان سينزل بالداعي لولا دعاؤه.

ما جرى لنبي الله زكريا عليه السلام وزوجه معجزة ربانية قد تتكرر مع بعض الصالحين من عباده من باب الكرامة، وعلى المسلم أن يوقن بالمعجزة والكرامة سبيلين من سبل تأييد الله تعالى لعباده وتثبيتهم وتطمين قلوبهم.

التوصيات:

على من يلجأ الى الدعاء ان يستحضر آدابه_ الخشوع، والسرية، والأمل في الله، والقين في الاجابة ممتثلا دعاء زكريا عليه السلام، وعليه تكون الاجابة من الله انا شاء الله.

يجب الأخذ بجميع الأسباب المتاحة للعبد ومن بينها الدعاء واخلاص النية وان الأمر كله موكول لله

باب الدعاء باب عظيم يحتاج إلى كثير من البحوث التي تستخرج فوائده.

إن البحث في باب المعجزة والكرامات في زمان طغت فيه المادة لبحث عظيم النفع، إذ به تندفع شبهات المادية الملحدة، وبه يزداد المؤمنون إيماناً.

الاعتماد في الطب على المادة وحدها يجرده من الأخلاق والقيم؛ لذلك على الباحثين في الطب أن يضعوا نصب أعينهم أن الداء والدواء إنما هما قدران من أقدار الله تعالى ينزلهما بقدر على من يشاء من عباده.

المصادر والمراجع

١- إحياء علوم الدين، ابو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفي:٥٠٥ه) دار المعرفة بيروت د٠ت ١(\٣٢٩)\

٢- التفسير البسيط ،ابو الحسن علي بن احمد بن محمد بنعلي الواحدي النيسابوري الشافعي (المتوفي ٤٦٨ه) المحقق اصل تحقيقه في(١٥) رسالة دكتوراة بجامعة الأمام محمد بن سعود ثم قامت لجنة علمي من الجامعة بسبكه وتنسيقه،عمادة البحث العلمي جامعة الأمام محمد بن سعود الاسلامية : الطبعة الأولى،١٤٣٠،١٤\٢٠٣

٣-الصحاح تاج العروس وصحاح العربية ،ابو نصر اسماعيل بن حامد الجوهري الفاربي (المتوفي:٣٩٣ه) تحقيق احمد عبد الغفور عطار دار العلم للملايين بيروت ،الطبعة الرابعة ١٤٠٧ه-١٩٨٧م، ١٩٨٨\٥٠

٤-الجواب الكافي لمن سأل عن الداء والدواء مخمد بن ابي بكر بن ايوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفي:٧٥١) دار المعرفة المغرب الطبعة الأولى ١٤١٨ه،١٩٩٧م

٥- العين ، ابو عبد الرحمن الخليل بن احمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي المتوفي(١٧٠) المحقق د- المهدي المخزومي د- ابراهيم السامراني، دار ومكتبة الهلال

٦- المستدرك للحاكم :لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه الحكم النيسابوري (المتوفي ك٤٠٥ه) تحقيق : مصطفي عبد القادر عطا ،الناشر: دار الكتب العلمية-بيروت لبنان الطبعة :الأولى ١٤١١ه-١٩٩٠م

٧- انوار التنزيل واسرار التأويل، ناصر الدين ابو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفي:٦٨٥) المحقق محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار احياء التراث العربي بيروت الطبعة الاولى ١٤١٨ه ،٦١٤

٨-تفسير الرازي ١٠٦\١٩ وفتح البيان في مقاصد القرآن أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري الفلوجي (المتوفي :١٣٧٠ه) عنى بطبعه وقدم له وراجعه خادم العلم عبد الله بن ابراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا- بيروت لبنان ١٤١٢ه-١٩٩٢م،١٧\ ١٢٨

٩-جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي ابو جعفر الطبري (المتوفي:٣١٠ه)المحقق احمد محمد شاكر مؤسسة الرسالة ،الطبعة الأولى ١٤٢٠ه٢٠٠٠-م ،٦٧\١٨

١٠- جمهرة اللغة ابو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي(المتوفي :٣٢١ه) المحقق : رمزي منير بعلبكي دار العلم للملايين بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٧،٢\٩٤١

١١-ديوان امرؤ القيس، امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، من بني آكل المرار ،المتوفي:٥٤٥م) اعتني به: عبدالرحمن المصطاوي و دار المعرفة – بيروت، بيروت الطبعة: الثانية ١٤٢٥ه -٢٠٠٤م،قافية الباء قصة أم جندب،ص٧٤
١٢- صحيح ابن حبان، ط الرسالة، باب أخباره صلي الله عليه وسلم عما يكون في امته و ذكر الخبار عن اغتداء الناس في الدعاء وفي الطهور في آخر الزمان (١٦٦\١٥) برقم٦٧٦٤، وقال محقق الكتاب اسناد صحيح علي شرط مسلم
١٣- صحيح البخاري تأليف ابي عبدالله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة البخاري الجعفي ط دار الشعب
١٤- صحيح مسلم تأليف مسلم بن حجاج القشيري، مكتبة الأيمان
١٥- مفاتيح الغيب التفسير الكبير ابو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري(المتوفي :٦٠٦ه) دار أحياء التراث العربي- بيروت لبنان الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ه،١٧٨\٢٨
١٧- معاني القران واعرابه ابراهيم بن السري بن سهل ،ابو اسحاق الزجاج (المتوفي:٣١١ه) المحقق : عبدالجليل عبده شلبي، عالم الكتب بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ه -١٩٨٨م ٤٣٤\٣
١٨-معجم مقايس اللغة احمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي ابو الحسن (المتوفي:٣٩٥) المحقق عبد السلام محمد هارون دار الفكر ١٣٩٩ه-١٩٧٩م٢\٢٧٩)
١٩- مسند الأمام أحمد بن حنبل: تأليف :الأمام احمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن اسد الشيباني (المتوفي٢٤١ه) المحقق احمد شاكر: الناشر دار الحديث – القاهرة –الطبعة :الأولي ١٤١٦ه- ١٩٩٥م